كتاب جديد

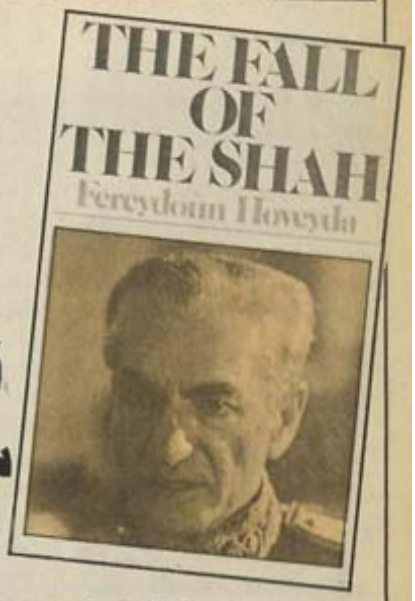

قصة سقوط الشاه

أكتوبر

« ستظل قصة شاه إيران السابق محمد رضا بهلوى لعدد غير قليل من السنين درسا من أبلغ دروس التاريخ الحديث فى الحكم والسياسة ، ومن هنا فإن هذه القصة ستبقى مثارا لاهتمام الكثيرين ، وعرضة للأخذ والرد . وللإفاضة وللإضافة » .

بداية.. ونهاية!

● المؤلف : فريدون هوفيدا . لامع الشاه ولامع الخمينى .

يرويها : فريدون هوفيدا

يقدمها : عبد العظيم حماد

وقد سبق لـ « أكتوبر » أن قدمت مجموعتين من الحلقات المسلسلة عن الشاه تناولت أولاهما قصة الأسرة البهلوية حتى عام ١٩٧٦ من وجهة نظر الكاتب الفرنسى الشهير جيراردى فيليه ، وتناولت الثانية الأحداث التى أدت إلى سقوط الشاه من وجهة نظر الشاه نفسه .

واليوم تستكمل « أكتوبر » ما بدأته من عرض مختلف جوانب الأحداث الإيرانية من وجهات نظر متباينة إيمانا منها بحق قارئها فى رؤية الصورة من كافة الزوايا . فنبدأ سلسلة جديدة تعالج الأسباب القريبة والبعيدة لسقوط الأسرة البهلوية على يد ثانى ملوكها والكيفية التى حدث بها هذا السقوط من وجهة نظر واحد من ألمع الدبلوماسيين الإيرانيين فى عهد الشاه هو فريدون هوفيدا شقيق أمير عباس هوفيدا أحد رؤساء حكومات « الحضرة الشاهانية الفارسية » العديدين وأكثرهم تفاوتا فى الحكم عليه من قبل المراقبين بين البراءة التامة والإدانة المطلقة . رغم أنه كان من أول ضحايا القصاص من رءوس الفساد والظلم فى إيران الشاهنشاهيه بعد انتصار الثورة الإسلامية على الطريقة الخمينية .

ورغم وضوح المؤلف القاطع فى إدانة الشاه وأسلوبه فى الحكم . وسعيه الدائم لإثبات أن الشاه كان يسير باندفاع فى الطريق الى الهاوية . ورغم تصريحه بأنه لن يترك شعوره بالمرارة من إعدام أخيه (البرىء من وجهة نظره) يطغى على موضوعية تفكيره وتحليله للأحداث ، فإنه كثيرا ما جعل همه الأول هو الدفاع عن أخيه . بل إنه حاول تصوير رفض أمير عباس النصائح الموالية له بالاستطالة على أنه بطولة يستحق من أجلها الثناء . كذلك سعى المؤلف دائما إلى تبرير تعاونه مع نظام الشاه الذى لا يتردد فى وصمه بالديكتاتورية والفساد والانفصال عن الواقع بأعذار واهية . أما ما قد يتوقعه القارىء من تحامل صارخ على الثورة الإسلامية وزعمائها فهو أمر لم يحدث إلا قليلا .

وبعد كل ما تقدم تبقى للكتاب مزاياه الكثيرة وأهمها أنه يؤصل أسباب الثورة الإيرانية فى أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . وأنه يقدم تحليلا جيدا لعلاقات القوى السياسية فى إيران فى تفاعلها الحى سواء بالتعاون أو بالصراع قبل الثورة وبعدها . فضلا عن أنه يقدم سردا ضافيا مقترنا بالشرح والتعليل لتطور الأحداث على الساحة الإيرانية بالطريقة التى أفضت فى النهاية إلى إعلان أول جمهورية فى إيران منذ ما قبل بزوغ فجر التاريخ .

لما الذى يقوله فريدون هوفيدا إذن ؟

كانت البداية – بداية النهاية للشاه ، وبداية البداية للنظام الجديد – هى لحظة شروق شمس يوم ٣ أكتوبر ١٩٧٨ على سفوح جبال الدرز المواجهة لمياه بحر قزوين حيث تغدو الزوارق الصغيرة وتروح لتجمع ملاحوها أغلى وأجود أنواع الكافيار لحساب ملك الملوك القابع فى شموخ وترفع فوق عرش الأكاسرة على بعد

● الرئيس كارتر : دفاعه عن حقوق الإنسان كان السبب المباشر فى أزمة الشاه .

خطوات من الساحل ومن نقطة الظاء الجبل بالسهل .

فى تلك اللحظة كان إمام الشيعة الأكبر آية الله روح الله الخمينى فى طريقه إلى مطار أورلى فى العاصمة الفرنسية باريس مطرودا من العراق . وبعدها الكويت وقبلها تركيا . ابتغاء لمرضاة الشاه الجار الذى ينبغى أن تخشى عداوته .

لقد كان وصول الإمام الخمينى إلى نوفيل لوشاتو بفرنسا إيذانا بتحوله من أكبر زعماء المعارضة للشاه إلى الزعيم الأوحد الذى هدمت إشارة من أصبعه كل ما بناه الشاه الأكبر رضا بهلوى بقسوته وجبروته وخليفته على العرش الشاه المخلوع بغروره وطموحه الذى لا حد له . فكيف حدث ذلك ؟

أى كيف تمكن الخمينى الذى طرد من إيران عنوة عام ١٩٦٣ دون أن يعبأ به الكثيرون ، من طرد الشاه أولا ثم خلعه ومعه الحكم الملكى برمته بعد أقل من ستة شهور من تصريح الشاه المشهور إلى مجلة يو . إس . نيوز أندورلد ريبورت . . ذلك التصريح الذى قال فيه « ليس بوسع أحد أن يطيح بى لأننى أحظى بتأييد ٧٠٠ ألف جندى وتأييد كل العمال ومعظم أفراد الشعب » !

حقا لقد كان الجميع يؤمنون بأن مسألة الإطاحة بالشاه مسألة غير واردة على الإطلاق أليس الرئيس كارتر هو القائل علنا وهو يحتفل بليلة رأس السنة الميلادية الجديدة ١٩٧٨ فى طهران بناء على تقارير مخابراته أنه يود أن يعرب عن إعجابه المتزايد « بملك يتمتع بالثقة المطلقة من جانب شعبه » . ومع ذلك فقد كان كارتر ولا أحد غيره هو السبب المباشر فى كل ما جرى وما سيجرى للشاه على أن ذلك لا يعنى أن أزمة نظام الشاه كانت من صنع كارتر . لكنه يعنى على وجه الدقة أن كارتر هو الذى جعل هذه الأزمة قضية يومية لدى كل إيرانى دون أن يفقد ذلك بطبيعة الحال .

لقد كان هناك الكثير من مظاهر السخط فى إيران قبل حملة حماية حقوق الإنسان التى شنها الرئيس الأمريكى فور توليه مهام منصبه . ولكن هذه المظاهر كانت فى الأغلب حوادث فردية

● الامام الخميني : من أحد الزعماء إلى الزعيم الأوحد.

فلما اشتدت الحملة الأمريكية بدأت المعارضة الإيرانية التي كانت تركز في ذلك الوقت على حقوق الإنسان تأخذ طابعا جماهيريا . فأعاد كريم سنجابي المدير مصدق تأسيس الجبهة الوطنية مستندا إلى أن النظام سيفكر أكثر من مرة قبل اعتقاله وقع زملائه بسبب الموقف الأمريكي الجديد الذي دفع قضية حقوق الإنسان والحريات الديمقراطية إلى مركز الصدارة . أما مهدي بازرجان المحامي الشهير فقد ألف اللجنة الإيرانية للدفاع عن حقوق الإنسان برئاسته . وراح المحامون يوقعون البيان تلو البيان احتجاجا على القمع وأساليب السافاك والتدخل المستمر في أعمال القضاء.

استجابة مقيدة

هنا ظن الشاه الذي كان واثقا من التأييد الشعبي الجارف له بعد الثورة البيضاء ومنح العمال العديد من المزايا أن السماح بجزء يسير من الديمقراطية سيفوت على خصومه هدف إحراجه دون أن تصل الأمور إلى حد الديمقراطية الصحيحة على الطراز الغربي الليبرالي (وكان الشاه لا يخفي انتقاده للديمقراطية الغربية التي كان يعتبرها غير مناسبة لبلاده من حيث الشكل . أما من حيث المضمون فقد كان من رأيه أن الديمقراطية الإيرانية تتفوق على الديمقراطيات الغربية نفسها) . لذلك سمح النظام بقدر من النقد داخل الحزب السياسي الوحيد (راستاخيز) ، وسمح كذلك بتخفيف حدة الرقابة على الصحف والتغاضي عن البيانات والمنشورات التي يصدرها زعماء المعارضة .

ولما كانت سياسة السير إلى منتصف الطريق لا تجدي مع الشعوب في قضية الديمقراطية ولما كانت سطوة السافاك مستمرة وسيطرة الشاه على كل مؤسسات الحكم بادية للجميع . فقد أدى ذلك التزر اليسير من الديمقراطية إلى تفاقم المعارضة لا إلى تهدئتها . وتحولت المساجد التي كانت تتمتع بقدر من الحصانة ضد التدخل الحكومي إلى مراكز للمعارضة . فتضاعفت بذلك أهمية دور رجال الدين في إشعال الثورة وقيادتها .

وفي هذه اللحظات بدأ صوت الخميني يصل إلى إيران من « النجف الأشرف » في العراق حيث منفاه الإجباري ليوجه الأحداث نحو الوجهة التي لا يريد لها بديلا وهي تدمير النظام بأكمله .

وتعود الخلافات بين الشاه والخميني إلى أسباب عديدة في مقدمتها الصراع التقليدي في إيران بين الأئمة الدينيين والحكام الزمنيين . وهو الصراع الذي اشتد أواره منذ إلغاء دستور ١٩٠٦ الذي كان يعطي أئمة المذهب الشيعي الخمسة الكبار حق الاعتراض على أي قانون يرونه مخالفا للشريعة الإسلامية . وكانت آخر مواجهة بين الطرفين هي التي حدثت عام ١٩٦٣ حيث سقط عشرات الآلاف من المتظاهرين قتلى برصاص بوليس الشاه وحيث خرج الخميني مطرودا إلى تركيا فالعراق .

وقد ضاعف من حنق رجال الدين وأفراد الشعب العاديين ضد الشاه في مواجهته مع الخميني (رغم أن الخميني لم يكن يحظى بكل

● امير عباس هوفيدا : لن أستقيل حتى لا أكون مثل قارون السفينة .

هذا التأييد الخارق عام ١٩٦٣) إسرافه في تشويه سمعة الرجل دون وازع من أخلاق أو كياسة . فقد راح في كل أحاديثه يؤكد أن الشعب الإيراني يحتقر الخميني لأنه ليس إيرانيا الأصل بسبب مولده في الهند . ولأنه حائك وعميل بالأجر للبريطانيين والعراقيين . أما وسائل الإعلام والصحف الموالية للعرش ، وكلها كانت موالية للعرش . فقد راحت بدورها تكيل أوضع الاتهامات للخميني جزافا . فمن قائل إنه يحض على الشذوذ الجنسي إلى قائل بأن أمه كانت راقصة محترفة .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أية مقارنة بسيطة يعقدها أي إيراني بين الرجلين كانت تنتهي لصالح الخميني حتما ، أدركنا سر اطراد التأييد الشعبي للخميني والولاء له بسرعة غير مألوفة . لقد كانت المقارنة تظهر الشاه رجلا مترفا فاسدا منغطرسا وفي بعض الأحيان منهتكا . بينما كان الخميني يبدو في أعين الجميع زاهدا متواضعا عفا يتحلى بالوقار والصلابة في الحق

لقد نشرت تلك الاتهامات الموجهة للخميني على الملأ يوم ٨ يناير ١٩٧٩ كرد غير مباشر من جانب الشاه على هجوم إمام الشيعة على سياسته في « أشرطة الكاسيت » المهربة عبر الحدود مع العراق . وفي اليوم التالي نظم سكان مدينة قم المقدسة مظاهرة احتجاج عارمة ضد هذا الأسلوب في الرد على إمامهم الأكبر . وهنا تردى النظام في أفدح أخطائه . فأمر قوات أمنه بفتح النيران على المتظاهرين ليسقط عشرات القتلى فاتحين بسقوطهم ضحايا الباب أمام طوفان من المظاهرات المتعاقبة كل واحدة منها تنظم إحياء لذكرى من سقطوا قبلها شهداء . وبذلك تذهب كل جهود الحكومة لاحتواء الاضطرابات سدى .

وهكذا لم تفلح اتهامات الحكومة للمتظاهرين بأنهم يتسلقون وراء مخطط أجنبي وأنهم يعرضون استقلال بلادهم للخطر في منعهم من الاستمرار في التظاهر تنفيذا لتعليمات الخميني في الخارج أو زميله شريعت مداري وبقية أنصاره المدنيين مثل بازرجان وإبراهيم يازدي وقطب زاده في الداخل . ففي شهر فبراير التالي اندلعت الاضطرابات في طهران وقم وتبريز ومشهد والأهواز وأصفهان ويازد وجهروم . وفر المعتقلون الإضراب عن الطعام .

أوهام الشاه

عند هذا الحد رأى الشاه أن القمع وحده لن يفيد في وقف الاضطرابات فقرر تخريض الموالين له على القيام بمظاهرات مضادة . وكان الرجل يظن صادقا أن له أنصارا بين الشعب الإيراني . ولكن ذلك التكتيك بدوره لم يفلح . لأنه على حد تعبير أمير عباس هوفيدا في تلك الأيام كان المرء بحاجة إلى قدر كبير من الشجاعة لكي يدافع عن الشاه . مثلما كان بحاجة إلى قدر كبير من الشجاعة لكي يهاجمه في الأيام التي خلت .

وكان ذلك الاعتقاد من جانب الشاه جزءا من حلقة الأوهام التي كان يعيش أسيرا لها منذ منتصف السبعينات على الأقل . لقد كان الرجل يظن أن الشعب راض عن أسلوبه في الحكم بعد الثورة البيضاء أو ثورة الشاه للشعب التي أسفرت عن توزيع الأرض على الفلاحين . وبعد منح العمال عددا لا يستهان به من المزايا الاقتصادية والاجتماعية .

كذلك كان الشاه يعتقد أنه يحكم إيران حكما ديمقراطيا لأن هناك برلمانا وهناك انتخابات بصرف النظر عن أن إرادته كانت هي القانون مهما اتخذت من أشكال دستورية أما المعارضة في رأيه فليست إلا خيانة وعمالة لجهات أجنبية . إذ ماذا يريد الشعب أكثر من ذلك ؟ . بل إنه كان ينبري بكل حماسة للدفاع عن أخطاء السافاك وانتهاكاته الصارخة لحقوق الإنسان لأن من كان يعتقلهم السافاك ويخضعهم لأبشع ألوان التعذيب لم يكونوا يزيدون في نظر الامبراطور عن كونهم قتلة ولصوصا وقطاع طرق أو إرهابيين يريدون فرض فكرهم السياسي بالقوة في أحسن الأحوال .

أما الوهم الأكبر الذي كان يسيطر على الشاه

● ثورة السافاك .. لم تستر عورة الشاه

بداية.. ونهاية!

فهو أن الشعب الإيرانى يستمتع بالرخاء والشعور بالعدالة بعد الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التى أجراها بنفسه . ولم يكن هذا الوهم سوى نتيجة لانعزال الشاه عن واقع الحياة اليومية للطبقات الفقيرة فى جميع أنحاء إيران . وتسلط الشعور بحنون العظمة عليه . وحبه الجارف للتملق والمداهنة الأمر الذى افتضح فى مجلاه حين قامت بترجمة كتابة « نحو الحضارة العظمى » إلى الفرنسية تنفيذا لأوامر مباشرة منه .

وإلى جانب كل ما تقدم كان الشاه يعانى من كثير من التناقضات التى أردته مخلوعا فيما بعد . لقد كان يريد أن يكون حوان كارلوس وفرانكو فى آن واحد . أى كان يريد أن يقوم بدور الرجل الذى يضع الديمقراطية والرجل المستبد الذى لا يطيق فكرة الاعتراض عليه فى الوقت نفسه . وكان الشاه يحاول كسب ثقة الشعب عن طريق القيام بدور الأب للشعب الإيرانى كله فى حين كان أفراد الأسرة المالكة ينقضون على ثروة الشعب بها واستغلالا دون إعاقة امتياء منه .

وقد أبلغنى أحمى يوما ما أنه طالبه باتخاذ موقف حاسم من أمراء وأميرات الأسرة المالكة الذين

● الشاه .. أيامًا وبترك هذا الكرسى

● مهدى بازرجان .. ألف لجنة للدفاع عن حقوق الانسان فى إيران .

نحوم حولهم الشبهات بعد أن طفح الكيل . فوافق على إصدار قانون يمنع الأمراء والأميرات من المشاركة فى أى أعمال أو مشروعات أو صفقات تكون الدولة طرفا فيها ولكنه فى اللحظة الأخيرة وقف نشره رسميا . ولم ينشر إلا بعد رحيله إلى الخارج حين كان لا يزال ملكا فى إجازة .

وعند هذا الحد ربما يثور فى ذهن القارىء سؤال له وجاهته . وهو لماذا لم يستقل أمير عباس هوفيدا من رئاسة الحكومة وهو يرى هذه الأخطاء التى لم يستطع إصلاحها ؟ والواقع أنه كان يرفض أن يكون كالفئران التى تقفز من السفينة وهى على وشك الغرق .

هدوء ثم إعصار

فى أوائل الربيع حلت على إيران حالة من الهدوء النسبى ولكن بددها اقتحام البوليس لمنازل الأئمة فى قم للقبض على مثيرى الشغب فاندلعت الاضطرابات مرة أخرى . واغلقت المتاجر .

وفى محاولة جديدة لامتصاص السخط طرد الأميراطور الجنرال نصيرى من قيادة السافاك ولكنه لم يحاكمه وبدلا من ذلك أرسله سفيرا إلى باكستان .

وفيما كانت الأمور تزداد تأزما كان الشاه لا يزال يرفض بإصرار العمل الوحيد الذى يكفل له ولأسرته ولعرشه النجاة . كان هذا العمل باختصار هو التحرك بحكمة على جبهات ثلاث هى إعلان الحرب على الفساد بجدية وفى كل موقع والحوار مع الزعماء الدينيين المعتدلين وعلى رأسهم آية الله شريعت مدارى وأخيرا إجراء انتخابات حرة ١٠٠ ٪ .

بدلا من ذلك انفجرت الصراعات الكامنة داخل حزب راستاخيز الذى أسسه الشاه (أى حزب النهضة) لإقصاء جامشيد آموزجار من رئاسة الحكومة . وكان زعماء الكتل المتصارعة يسعون كل بمفرده لتوفى هذا المنصب . وكان أبرز المتصارعين أردشير زاهيدى السفير الإيرانى فى واشنطن وزوج ابنة الشاه السابق وبطل الجنرال فضل الله زاهيدى قائد انقلاب ١٩٥٣ الذى

● إبراهيم يازدى .. كان مع قطب زاده أكبر مروجى أفكار الخمينى فى الداخل .

أطاح بمصدق واعاد الشاه إلى الحكم . وهو شائع بها فائدى الوزير السابق والسكرتير الأسبق للاميراطورة . وأخيرا على أمينى رئيس الوزراء الأسبق الذى يقال عنه إنه رجل واشنطن فى طهران .

وجاء شهر رمضان لتزداد المعارضة ضراوة يزيد من حدتها رواج شائعات عن وصول جنود إسرائيل لدعم النظام . وكان حادث احراق سينما متر فى عبدان يوم ١٩ أغسطس الذى راح ضحيته ٣٧٧ قتيلا هو نقطة اللاعودة فى مسار الاضطرابات .. وذلك أن كل الشبهات دارت حول السافاك فيما يتعلق بالمسئولية عنه . لا سيما بعد أن تأخر وصول فرق الإطفاء وهى من أعلى فرق الإطفاء فى العالم كفاءة لكون عبدان هى مركز استخراج وتكرير البترول الإيرانى .

وأعقب ذلك الحادث حادث إحراق سوق الخضر فى طهران بينما كان كريم سنجابى زعيم الجبهة الوطنية يدعو إلى تشكيل حكومة ائتلافية تشترك فيها المعارضة دون جدوى .

الدعوة للجمهورية

وكان إصرار الشاه على رفض كل الحلول الوسط هو المناخ الملائم لازدهار دعوة الخمينى إلى التخلص من الملكية نهائيا وإقامة الجمهورية الإسلامية . والواقع أن دعوة الخمينى لإقامة جمهورية إسلامية قد صادفت النجاح بسبب الدور الذى لعبه فكر البروفسور الراحل على شريعتى استاذ علم الاجتماع فى جامعة مشهد فى تهيئة أذهان الشباب الإيرانى على وجه الخصوص لفكرة الحكم الجمهورى الإسلامى استنادا إلى الفقه السياسى لأئمة المذهب الشيعى .

ومع ذلك فإن كل ما فعله الشاه هو إقصاء آموزجار من رئاسة الحكومة واسناد هذا المنصب إلى جعفر شريف إمامى رئيس مجلس الشيوخ . وحدث ذلك فى وقت كانت فيه المعارضة السياسية تطالب بتشكيل حكومة ائتلافية . والمعارضة الدينية المعتدلة لا تطمع فى أكثر من عودة دستور ١٩٠٦ .

ورغم أن ذلك لم يكن هو الحل الأمثل فضلا عن أنه لم يكن الحل المنشود فقد استمرت الاضطرابات والمظاهرات لا سيما أن رئيس الحكومة الجديدة لم يكن فوق الشبهات . لذا كان شريف إمامى يقدم حكومته إلى البرلمان فى الوقت الذى يقيم فيه ألوف الإيرانيين فى المقابر لدفن ضحايا المظاهرات بصورة تكاد تكون يومية .

وهكذا لم يكد يحل شهر سبتمبر حتى كانت الهتافات بسقوط الشاه وحياة الخمينى تتردد أصداؤها من شمال إيران إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها . بل إن جنود الجيش كانوا يسارعون إلى إلقاء اسلحتهم والانضمام إلى الثوار وسط التحيب والدموع حين كان هؤلاء يقذفونهم بالورود منادين إياهم بإخوتنا فى الله والوطن . فلم يكن ثمة بد أمام الشاه الذى اختار المضى فى طريق المواجهة العنيفة إلى نهايته من إعلان الأحكام العرفية . وتعيين حاكم عسكرى عام فى هذا يوم ٨ سبتمبر الذى تصادف أنه كان يوم جمعة .

وقد عرف هذا اليوم فيما بعد بيوم الجمعة السوداء لكثرة من سقطوا فيه من القتلى على يد سلطات الأحكام العرفية . فقد قتل فى هذا اليوم حوالى ٥٠٠ شخص حسب أقوال المعارضة وزاد الأمور سوءا سريان شائعة تفيد بأن الذين كانوا من الجنود الإسرائيليين الذين وصلوا سرا إلى إيران .

وسط هذا الجو طرحت عدة أفكار لم يؤخذ بأيها . فقد اقترح البعض إعادة على أمينى إلى السلطة لإجراء انتخابات حرة . ولكن ولاءه المعروف لواشنطن حال دون ذلك بسبب اشتداد موجة الكراهية فى إيران لكل ما هو أمريكى . وحاول الشاه بعد ذلك استقطاب نفر من زعماء المعارضة دون جدوى . كذلك فشلت حملة الحكومة ضد زعماء الفساد فى إقناع الشعب بنزاهة الحكم خصوصا بعد فرار كبار المفسدين واتخاذ الضعفاء منهم كباش فداء .

وعندما حل شهر أكتوبر جاء معه بعدة تطورات فقد اشترك العمال فى الثورة عن طريق الاضراب لأسباب اقتصادية أولا ثم لأسباب سياسية فيما بعد . وأجبر الشاه حكومة العراق على طرد الخمينى إلى الكويت ثم فرنسا التى كان وصوله إليها سببا مباشرا فى تحول كافة فرق المعارضة للعمل تحت لوائه وما ذلك إلا لأن وجوده فى فرنسا هيأ له سبل الاتصال الحر برجاله فى إيران وبالشعب الإيرانى من خلالهم .. وهو ما كان يفتقده حقا فى العراق .

ومن هنا تبدأ الحلقة التالية ..

البقية فى العدد القادم